

أردنا توصيفها في باب محدد مقابل أقاصيص الغرام عند غيرهم من الشعراء ، أو قصص البطولة لدي الفرسان من أبناء القبائل وهنا اقترب الصعاليك من عالم القصة إزاء ما استعرنا مصطلح أهلها ، وكان الخضوع المؤكد لواقعية حياتهم الفلقة التي لم تعرف هدوءاً ، ولا حتى قدراً من الاستقرار أو الثبات .

وصفوة لقول حول هذه الصورة وتلك اللوحات من واقع الصعاليك تظل معلقة بمنهج الباحث في صياغتها وعرضها ، فكان منهجه بمثابة إضاءة تكشف لنا صوراً من ذلك التمايز ، وتحكى قصة الصراع ، وتحديد خصوصية الرؤى والفلسفات ، وتعكس تنوع المواقف لدى أبناء الطائفة الواحدة ، ونعود معه لنراه من جديد ، وكيف يشغله الجانب المظلم القاتم من جوانب الحياة الجاهلية ، هو جانب الفردية المعنة في تشبثها بقضاياها في خلال الطائفة ، وهي الفردية البارزة في ثوب غير قبلي ، يضع شعراءها في موازاة فردية شعراء القبائل من نظراء امرئ القيس وطرفة الأعشى وغيرهم ، وهي فردية من غمط غريب غرابة الفئدة ونفرد سلوك أبنائها ، ويبدأ الباحث - كما رأينا - معتركه البحثي حولها من منطلق التحديد اللفظي والاصطلاحي لمشكلة الصعلكة لينتهي بتعريفنا ببعض من شعرائها البارزين ممن ترجم لحياتهم ، وتتبع حركتهم الفنية في أسلوب قصصي لا يخلو من نشويق ورونق أداء .

في دراسة الصعاليك يتراءى لنا منطق العالم الجاد الذي لا يتوانى في جمع أدق التفاصيل التي يستكمل بها ، « رتوشه » البحثية ، بما يخدم فكرته مهما كانت جزئيتها ، فكانت استعانتته بالعلوم المساعدة لا تقل فعالية عن غوصه في أعماق مادته التخصصية التي استغرقت عير تتبعه دواوين الشعراء ، أو توقفه عند مختارات الشعر ضمن مصادرنا القديمة .

كما تتراءى لنا صورة الشاعر الباحث الذي يدرك خفايا شعرائه ويجليها لنا بلغة متميزة تعكس جانباً من وعيه التراثي ، وتحكى بعضاً من جوانب فكره وإبداعه من خلال موروث طويل ممتد امتداد بواكير العصر الأول ، فهي